

أصداءُ خرابٍ

ماذا تريدُ من النواحِ إذا لم تكنْ نقصدُ إساءةَ استخدامِ الحزنِ؟

الصدى الأولُ

صَيْفٌ هُوَ صَيْفٌ بِلَوْنِهِ وَخَرِيفٌ بِطَبْعِهِ، شَجَرُهُ أَصَابَهُ وَهَنٌ وَمَوْجَةٌ مِنْ شَجَنِ أَهْلَكَتْ أَغْصَانَهُ وَيَتَمَّتْ أَوْرَاقُهُ. فِي
الْأَمْسِ حَلُمْتُ بِأَنِّي هَزَمْتُ الْمَوْتَ لِأَنَّ الْحَيَاةَ أَجْمَلُ مِنَ الْأَتْعَاشِ. لِقَلْبِي بَبْضٌ غَرِيبٌ وَإِقْقَاعٌ نَاشِزٌ. لَيْتَنِي كُنْتُ
حَدِيدًا حَتَّى أَصْدَأَ مِنْ دُونِ أَنْ يَجْتَاخَنِي التَّفْسُخُ الْعُضْوِيُّ وَتَأْكُلَنِي دِيدَانُ الْأَرْضِ. كَمْ جَحِيمٍ يُحَاصِرُنِي لِيَلْعَنَ
أَفْكَارِي! وَكَمْ نَبِيٍّ يُكْفِّرُنِي لِأَنِّي لَا أُؤْمِنُ بِأَنَّ الْعِصِيَّ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَشُقَّ الْبِحَارَ أَوْ تَتَحَوَّلَ إِلَى أَفَاعٍ! ... دُمُوعُ خَرَبْتَنِي
عَلَى قَدْرِ مَا خَرَبْتَهَا حَتَّى غَدَوْتُ أَنْشِجُ لِلْأَفْرَاحِ وَأَبْتَهَجُ لِلْمَأْتَمِ.

الصدى الثاني

الْحُبُّ أَوْسَعُ مِنْ «حَقِيقَتَيْهِ»!

أَحْبَبْتُكَ، يَا غَرِيبَهُ! مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَكَ أَوْ تَعْرِفَنِي، وَكُنْتُ أَجْمَلٌ وَأَصْفَى مِنْ أَنْ أُحِبَّكَ، فَتَابَعْتُ رَسْمَ الْمَشْهَدِ كَعَابِرِ
سَبِيلٍ، وَمَضَيْتُ... اسْتَوَطَنْتَنِي، فَفَرَزْتُ أَنْ أُسْرِقَ فَرَحًا يُزِيحُ أَصْدَاءَ الْخَرَابِ عَنْ جُدرَانِ وَحَدَيْ، وَأَصْنَعُ نُظْمًا
يُبُولُوجِيَّةً أُخْرَى لِلْفَرَاشَاتِ، كَيْ تَتَمَكَّنِي مِنْ مُوَاجَهَةِ الطُّيُورِ النَّهْمَةِ، فَتَمْتَلِكِي السَّمَاءَ... أَحْبَبْتُكَ كَمَا لَمْ أُحِبْ مِنْ
قَبْلُ... أَحْبَبْتُكَ بِلا أَمَلٍ، فَقَدْ أَتَعَبَ الْبَرْدُ قَلْبِي، وَأَغْنِيَاتِي لُحْنَتْ عَلَى نَعْمِ خَرِيفِي، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْبُكَاءَ وَالْبُؤْسَ
وَالنَّوْاحَ، وَصُورَتِكَ كَانَتْ دَافِئَةً، وَأَثْرُكَ نَصْرًا، فَحَمَلْتِ لِي أَفْقًا كُنْتُ فَقَدْتُهُ...

أَحْبَبْتُكَ عَلَى نَحْوِ بَسِيطٍ، بَعِيدًا عَنِ أَشْعَارِ الْعَاشِقِينَ الْمُبْتَدَلَةِ... أَحْبَبْتُكَ مِثْلَمَا كُنْتُ فِي نَاطِرِي، مِنْ دُونِ مَرَايَاكَ،
لِأَنَّكَ كُنْتَ أَصْدَقَ مِنَ الْمَرَايَا، فَحَمَمْتَنِي مِنْ رَهْبَتِي... أَحْبَبْتُكَ رَغَمَ غِيَابِ الْبَنْفَسِجِ عَنِ ذَاكِرَتِي، فَقَدْ كُنْتَ بَنْفَسَجَةً
لِي مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ...

أَحْبَبْتُكَ، يَا غَرِيبَهُ!

أَحِبُّكَ، يَا غَرِيبَهُ!

الصّدَى الثَّالِثُ

هَذَا اللَّيْلُ أَبْيَضٌ ... سَتَائِرُ مُسَدَّلَةٌ بَاهِتَةٌ اللَّوْنِ خَلْفَهَا جِيرَانٌ تَشْغَلُهُمْ طُقُوسٌ «وَحَدَهُمْ» يَعْرِفُونَهَا، وَقِبَالَتِي مَنْزِلٌ قَرْمِيدِي اللَّوْنِ أَصْحَابُهُ غَرِيبُو الْأَطْوَارِ، وَأَصْوَاؤُهُ خَافِتَةٌ، وَإِطَارَاتُ نَوَافِذِهِ بَيَضَاءٌ تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةٌ بَحْرٍ مُضْطَرَبٍ. وَحُلٌّ وَشِتَاءٌ وَطَمِيٌّ.. وَاجِهَاتُ مَحَلَّاتٍ مِنَ الطُّوبِ وَالْحَدِيدِ الْمُطْرَقِ - أَخَاذَةٌ! صَيْدَلِيَّةٌ مِنَ الصَّفِيحِ، وَمَطَرٌ وَنَيْدٌ مَدَاقُهُ قَصْدِيرٌ، وَرُجَاجٌ «غَيْشٌ».. عَطُورٌ رَخِيصَةٌ، وَمَرَكَزٌ بَرِيدٌ مَدْخَلُهُ رَطْبٌ، وَزِحَامٌ.

لَيْسَتْ مُؤَجَّرِي الْمُسَيْنِ رَائِحَةٌ سَمَكٍ وَدُهُونٍ وَخَلَايَا مَيْتَةٍ.. فَرَقٌ مِنَ الْحَرِيشِ الْعَاضِ تَغْزُو مَكَانِي، وَلَا حَوْلَ لِي، لِأَنِّي أَمَقْتُ مَمْلَكَتِي الرَّدِيئَةَ، وَأَحْسُ نَفْسِي كَنَحْلَةٍ عَامِلَةٍ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا شَيْءٌ مِنْ قَبْلُ، وَمَا لَدَيْهَا الْآنَ أَقْلٌ مِنْ لَأَشْيَاءٍ، فَالِدَبَّيَّةُ الْجَائِعُونَ كَثُرَ وَحَمَفَى..

يَا اللَّهُ! خُذْنِي إِلَى غَابَةِ مِنَ الْبَارُودِ، وَدَعْنَا نَحْلُمُ بِسُكُونٍ غَيْرِ مُعْلَنٍ، فَنُحَارِسُ الْحَبَّ فِي صَمْتٍ مِنْ دُونِ أَنْ تَغْتَصِبَنِي.

الصّدَى الرَّابِعُ

قَدْ جَاءَتْ سَنَةٌ جَدِيدَةٌ، فَهَلْ تَذَكَّرْتُ أَنْ أَكْتُبَ وَصِيَّتِي؟

لَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِي أَوْ أَصْدِقَائِي يَعْرِفُ أَنِّي عَلَى شَفِيرِ الْمَوْتِ، وَلَيْسَ الْمَوْتُ مَا يُؤَلِّمُنِي، بَلْ حُزْنُهُمْ عَلَيَّ، لِأَنِّي أُدْرِكُ كَمْ يُحِبُّونَنِي رَغْمَ كُلِّ مَا اقْتَرَفْتُ مِنْ أَخْطَاءٍ وَحَمَاقَاتٍ بِحَقِّهِمْ.

قَصْرٌ حَجْرِيٌّ، وَأَرْبَعَةُ طَوَابِقٍ، وَمَمَرٌ عَرِيضٌ مُعْتَمٌ، وَصَرِيرُ أَبْوَابٍ.. ظُلْمَةٌ أَجْزَأُهَا وَاضِحَةٌ.. وَشَوْشَاتٌ وَأَحَادِيثٌ عَنْ أَحَدٍ قَدْ مَاتَ، وَأَنَا أَرُقُّ كُلَّ شَيْءٍ..

كُتُبٌ وَضَجِيجٌ بَعِيدٌ، وَشَارِعٌ كُحْلِيٌّ، وَشَاخِصَاتٌ مُتَاكِلَةٌ.. مَوْقِفٌ بَاصٍ اسْتَفْرَدَتْ بِهِ الرِّيْحُ، وَمَقْعَدٌ خَشَبِيٌّ لَا أَقَارِبَ لَهُ عَلَى مَسْنَدِهِ قُبْعَةٌ صُوفِيَّةٌ مَنْسِيَّةٌ، وَفِي الطَّرَفِ الْمُقَابِلِ كَبِينَةٌ هَاتِفٌ عُمُومِيٌّ مُحْطَمَةٌ النُّوَافِذِ هَجَرَهَا حَتَّى الْعَابِرُونَ.. لَوْحَاتٌ، وَأَعْلَفَةٌ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ يُضَمِّدُهَا لِاصِقٌ بَنِيٌّ وَتُغَطِّي سَطْحَهَا طَبَقَةٌ مِنَ النِّيْكُوتِينَ. سَهَابِرَةٌ وَمُحَامُونَ وَرُسُومَاتٌ صَاحِبُهَا عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ، وَعَتَمَةٌ... نَبَاتَاتٌ وَأَعْشَابٌ تَنْمُو عَلَى نَحْوِ غَرِيبٍ، وَمُسْتَنْفَعٌ مِنْ مَوَاضٍ مُؤَلَّةٍ...

أَمْشِي نَاسِيًا سَاقِيًا، فَأَرَى مَنْظَرَ خَلْفِيًّا لِمَرْأَةٍ شَرِقِ أَسْيُويَّةٍ - امْرَأَةٌ تَبْخَرُ فِي الْحَالِ، وَتَتْرُكُ خَلْفَهَا لَيْلًا بِلَا تَفَاصِيلِ.

الصّدَى الحَامِسُ

حُبُّكَ مَا زَالَ يُدْفِعُ حَتَّى الثَّلَجِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ قَلْبِي!

خَسِرْتُكَ مَرَّتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، فَتَعَبْتُ، وَعَادَرْتُ تَحْتَ سَهَاءِ رَمَادِيَّةٍ تَعْرُقُ فِي سَوَادِي، مُجَاهَ سَلَامِ خِتَامِي مَعَ رَغْبَتِي الَّتِي مَرَّقَهَا الْبَرْدُ. كَمْ أُحِبُّ اللَّيْلَ وَالْعَتَمَةَ، كَيْ لَا أَرَى وَلَا أَرَى! أُحِبُّ إِلَى حَدِّ الْكَرَاهِيَّةِ، فَهَنَّاكَ دَائِمًا حَيِّزٌ وَاسِعٌ مِنَ الْخَوْفِ عِنْدَمَا يَفْقِدُ الْمَرْءُ مِنْ يُحِبُّ، وَحَيِّزٌ وَاسِعٌ مِنَ الْمُتَعَةِ عِنْدَمَا يَبْكِي الْمَرْءُ عَلَى مَنْ يُحِبُّ.

تَأَكَّلْتُ أَطْرَافَ مِرَاتِي وَتَفَسَّخَ سَطْحَهَا حِينَ اعْتَرَفْتُ لَهَا أَحْيَرًا بِمَا يَتَّبَعُنِي مِنْ رَهْبَةٍ، وَكَأَنِّي أَنْتَظِرُ الْمَوْتَ - عَيْنَايَ لَيْسَتَا عَيْنِي، وَلَا قَلْبِي، وَيَدَايَ تَبَيَّسَتَا، وَلَا أَحَدٌ هُنَاكَ كَيْ أَتْرِكَ الدَّرَبَ لَهُ!... جَسَدٌ رَفَضَنِي، فَصِرْتُ ظِلًّا فِي ظِلَامٍ، وَأَضْجَرْتُ كُلَّ مَنْ حَوْلِي وَكُلَّ مَا حَوْلِي، فَهَجَرَنِي الْجَمِيعُ حَتَّى رِبِيعِي الزَّائِفِ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ الْخِلَاصَ مِنْ مَسْعَايَ إِلَى مُصَادَرَةِ حُرِّيَّةٍ مِنْ أَحِبُّ، وَلَمْ أَفْهَمْ أَنَّ الْحُبَّ مَا يَزَالُ شَرْطَ الْحُلْمِ، وَأَنَّ الْحُلْمَ مَا يَزَالُ شَرْطَ الْحَيَاةِ.

الصّدَى السَّادِسُ

أُرَدِّدُ شِعَارَاتِ الْعَدَالَةِ، وَأَنْسَى الْجَائِعِينَ، وَأَعْضُ الطَّرْفَ عَنِ الْفُقَرَاءِ. أَنَادِي بِالْمَسَاوَاةِ وَحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ، وَأَعْشُقُ صُورَ النِّسَاءِ الْعَارِيَاتِ فِي الْمَجَلَّاتِ الْمَلَوَّنَةِ وَعَلَى صَفَحَاتِ الْإِنْتَرْنِتِ، وَأَجْهَدُ نَفْسِي فِي إِغْوَاءِ حَبِيبَاتِ وَرُوجَاتِ أَصْحَابِي وَأَصْدِقَائِي. وَهَكَذَا تَعَلَّمْتُ كَيْفَ أَكُونُ «مُتَّفَعًا» بِأَمْتِيَا...

الصّدَى السَّابِعُ

قَدْ يَكُونُ أَقْصَى السَّعَادَةِ هُوَ نَجَاحُ الْمَرْءِ فِي جَلْبِ السَّعَادَةِ لِلْآخَرِينَ، وَلَكِنْ مِنْ حَقِّي أَنْ أَشْعُرَ أَحْيَانًا أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعَاشَ رَغْمَ جَمَاهَا!

لَيْتَنِي كُنْتُ أَسْتَطِيعُ حِفْظَ أَحْلَامِي عَلَى فُرْصِ مَضْغُوطٍ، فَأَسْتَعِيدَهَا مَتَى رَغِبْتُ، وَأَحْمُو مِنْهَا مَا أَشَاءُ... وَلَيْتَنِي كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضْغَطَ (ctrl+z) حَتَّى أَصَحِّحَ أَخْطَائِي، وَأَنْسَى أَنِّي كُنْتُ عَاشِقًا فَاشِلًا، وَأَتَعَلَّمَ مِنْ جَدِيدٍ كَيْفَ أُحِبُّ، وَأَتَخَلَّصَ مِنَ التَّفَكِيرِ بِالتَّفَاصِيلِ الْمُحِيطَةِ - بِأَنِّي أَكْرَهُ الطَّنَاجِرَ وَأَوْعِيَةَ الطَّهْيِ وَرَائِحَةَ اللَّحُومِ الْمَسْلُوقَةِ وَالقَرْنَبِيطَ، وَأَنَّ جِيرَانِي لَا يُحِبُّونَ الثَّعَالِبَ بِلِ الْكِلَابِ وَالْقَطَطَ، وَأَنَّ صَدِيقِي الثَّغْلَبَ الْمَسْكِينَ يَرْتَادُ حَدِيقَةَ الدَّارِ كُلَّ صَبَاحٍ بِلا جَدْوَى، فَمَا مِنْ دَجَاجَاتٍ هُنَاكَ.

الصّدَى الثَّامِنُ

لَيْتَنِي كُنْتُ وَحِيدًا مَعَ اللَّهِ كَيْ أَنْحَاوَرَ مَعَهُ عَنْ هَمِّنَا الْمُشْتَرِكِ. كَمْ أُشْفِقُ عَلَيْكَ يَا اللَّهُ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْخَارِجُ عَلَى إِرَادَةِ الطَّبِيعَةِ! أَخْطَأْتُ عِنْدَمَا تَصَوَّرْتَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى التَّحَكُّمِ بِهَا تَخَلُّقًا. إِنَّكَ تُحِبُّ الْعَدْلَ وَلَا عَدْلَ هُنَاكَ، وَتُحِبُّ الْمُسَاوَاةَ وَلَكِنَّ رُسُلَكَ يَخْدَعُونَكَ، وَتُرِيدُ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ بَيْنَكَ يَرُونَ الْقَبَاحَةَ جَمَالًا. وَلِكثْرَةِ مَا تَعْشَقُ النِّسَاءَ اخْتَرْتَ جَمِيعَ أَنْبِيَائِكَ رِجَالًا، لِأَنَّكَ اعْتَقَدْتَ بِأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلِكَهُنَّ بِذَلِكَ! أَخْطَأْتُ يَا اللَّهُ... أَخْطَأْتُ يَا صَدِيقُ!

الصّدَى الثَّاسِعُ

كَمْ ضَوْءٍ حَوْلَنَا لَا نُرِيدُ وَلَا نُحَاوِلُ أَنْ نَرَاهُ! وَكَمْ نَحْنُ مُحَافِظُونَ وَنَكْرَهُ الْجَدِيدَ وَنُسِيءُ فَهْمَ الْحَيَاةِ وَحَرَكَتَيْهَا! نُنْتِجُ وَنُكَافِحُ مُنْتَجَاتِنَا لِأَنَّهَا أَكْثَرُ ارْتِقَاءٍ مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَى فَهْمِهَا.

الصّدَى الْعَاشِرُ

«شِفْرَةٌ» وَرَائِيَّةٌ...

آدون المير، 2010